الغـــرور وجنون العظمة

فى كل رجل وامرأة غريزة غرور وحب للتقدم والتفوق ، وان كان هذا يتفاوت بتفاوت البيئات ومستوى الذكاء والعاطفة والتعليم . فقد لاتبدو هذه الغريزة ، فينزل التواضع وتهبط القناعة الى مرتبة اليأس الفوز بأية نتيجة مع ما يصحب اليأس من نتائج . وقد تشتد شهوة التفوق إلى حالة الهوس والجنون . وهذا هو جنون العظمة أو لغرور الأكمل المخيف

وقد يصبح من العسير أن تميز بين هذا الجنون وبين الغلو فى التسامى الى المثالى . وحسبنا شاهداً على هذا التسامى ، حياة ابراهام لنكولن عظيم الأمة الامريكية . فقد اتفق حين كان مستخدما صغيرا أن اشترى فى المزاد العلنى صندوقا خشبياً وجـــد فيه بعض كتب القانون ، فوقف جهده على قراءتها ، وكان هذا مقدمة لحياة طويلة وسعيدة من النضال تحقيقاً لما ركز نفسه من هو العظمة ، فانتخب رئيساً لجمهورية الولايات المتحدة الامريكية وكذلك نحا روكفلر المليونير الامريكى نحو العظمة فكان سيد ملوك المال ، وهم خيره البلاد كلها بانشاء المستشفيات حتى فى الصين ، وكان الأديب الكبير الانجليزى جون ديكنز ، قد استغل حياة المسغبة وحملته مطالب العيش على لصق البطاقات على زجاجات الأدوية فكان ينزع خلال ذلك

الى مطالعة الكتب وكتابة القصص التى أصبحت خالدة

ومما يلاحظه مديرو مستشفيات الامراض العقلية وأطباؤها ، إدعاء بعض المرضى او أكثرهم فيها أنهم زعماء وأبطال أو ملوك أو أنبياء أو آلهة أو أغنياء يوقعون شيكات بالملايين من الجنيهات ويرجع هذا الادعاء انه كان للمرضى مطالب سامية لم يحققها القدر لهم فلما طغت عليهم شهوة العظمة وملكتهم جنوا بالعظمة ، ونعموا بمظاهرها الادعائية فى المستشفيات التى يبدو أنها مجال طمأنينتهم وراحتهم استطاعوا أن يدعوا كل شىء دون أن يجدوا من يتهكم بهم بل من يوافقهم ويواسيهم إلى أن يناموا وتفرغ جعبة عظمتهم

وقد اثار جنون العظمة أو قل مظاهره الواضحة شعور بعض المجانين انهم مضطهدون فى سبيل آرائهم الفذة ومواهبهم غير المعترف بها .

ولعل عصابات السطو على المصارف والحياة المترفة التى يستمتع بها لصوص العصابات الضخمة — من آثار حب العظمة ، حين لاتسعفهم التربية والظروف على أن يكونوا عظماء حقا فجعلوا الاجرام وسيلتهم الى المال

ولعل الفارق البارز المميز للمرأة عن الرجل ، انها خلقت للحمل والرضاعة والحضانة اى لمهمة سامية لعلها اعظم المهام وهى استمرار

النسل لتعمير الدنيا . ومن اجل هذا كان اتجاه تكوين جسمها يهدف الى تحقيق هذا الغرض السامى النبيل . وفى مقدمة هذا أن لها رحما له كينونته ودنياه وعالمه . وهو مصـــدر الكثير من متاعب المرأة واتجاهاتها والمؤثر فى نفسيتها ونظرتها الى الرجل والحياة والعالم كله .

والى هذا مرد شكوى المرأة من الآلام العصبية وظاهرة البغض والكآبة والشك والقلق وتقلب الرأى . وتلك ناحية كان ينبغى ان يعنى المربون بدراستها وعلاجها وارشاد الزوجين اليها منذ وجودهما فى قاعة التدريس لكى لاينشأ من هذا سوء الفهم والتفاهم والتباغض والمنازعات التى تنتهى بالشقاق والفراق والطلاق وتودى بالاسرة والصغار

ولما كانت الكلمة الأوروبية « هيستريا » معناها الرحم . فقد اطلقها العلماء الأوروبيون على الحالة العصبية

هذا ومن النساء من يحلو لهن ان يبدين مايبديه الرجال فى اسلوب الحديث والعمل والزى الى حد يجعل الحياة بين المراة المسترجلة وبين زوجها متعذراً وقد تهيى هذه الحالة للمرأة النضال والاشتغال بالسياسة والثورات

ومن النساء من تعنى بنفسها فلا يعنيها زوجها او اولادها اواسمها فكل وجهتها الاستيلاء على ماتصل اليه يدها فهى انانية

ومن النساء من يكون « فى أحلامها » على صورة أبيها أو أخيها او ذوى قرباها أو جيرانها أو شخصية رأتها فانطبعت فى ذهنها واستجاب فهى أبداً ان قلقة غاضبة كئيبة مادام أن زوجها ليس على هذه الصورة الماثلة فى ذهنها

ومهما يكن من شىء ، ففى كل امرأة شىء مما تقدم كثيرا أو قليلا تبر و تخفيها عوامل مختلفة من البيئة والتربية والملابسات المالية

مركب النقص

النفس البشرية من أعجب أسرار هذا الكون الغامض . وقد حاول الانسان أن يفهمها منذ القدم ولكنه لم يصل بعد فى فهمها الا إلى مبادىء أولية سطحية . ومع ذلك فان فهمه الضئيل لهذه المبادىء الأولية ، لايزيد هل أن يكون تأويلا . يختلف فيه أفراد الباحثين والعلماء اختلافا عظيما . يكاد يجعلنا فى شك عظيم من حقيقتها (١)

ولكن هناك حقيقة لاينبغى لأحد أن يشك فيها وهى أن تلك النفس البشرية كيان بديع بعيد الاغوار ، له قدرة عجيبة على تسجيل التجارب التى تمر بالانسان وفيها مرونة لاحـــد لها تجعلها قادرة على الاحتيال لملاءمة الظروف التى تحيط بالفرد بطرق لاحصر لها بعضها طرق مباشرة وبعضها طرق ملتوية

---

(١) مقال الأستاذ محمد فريد أبو حديد بك ـ الهلال

وهناك فى الأدب الانجليزى قصة رمزية أرى من المناسبة أن أشير اليها هنا لأنها تصور النفس البشرية ومقدرتها على تسجيل التجارب التى تمر بالانسان وهى قصة « صورة دوريان جراى » للمؤلف القصصى الكبير الانجليزى « يوسف كنراد » . وهى تتلخص فى أن شابا من أبناء الأعيان وهب الله له صورة من أجمل صور الخلق الجسمانى وقد رسمت له صوره عجيبة ، أودع فيها الفنان الذى رسمها كل فنه فصارت كأنها كائن حى ، لا يمكن أن يفرق أحد بين دقائق ملامحها ودقائق ملامح الفتى . وكان فى تلك الصورة سر عجيب وهو أنها تسجل الانفعالات النفسية التى تعترى صاحبها فكان الشاب كلما أتى فعلا من الأفعال تغيرت ملامح الصورة العجيبة تغييرا مناسبا لفعله . فاذا ارتكب عملا من أعمال القسوة اعترى الصورة تغير فى شفته السفلى مثلا ، فالتوت التواءة صغيرة تنم عن أثر من القسوة . واذا ارتكب عملا من أعمال الخيانة اعترى صورته تغير آخر عند العينين فصارت نظرتهما زائغة بعض الشىء وهكذا . فما زال الشاب يقارف ما يقارف من الحياة وصورته تتغير فى كل مرة بعض التغير مع بقاء جسمه على ما كان عليه من جمال الخلقة ونضرة الشباب ، حتى آل أمر الصورة أخيرا الى أن صارت شوهاء مسوخة منكرة وصار الشاب نفسه لا يحب النظر اليها ، وصارت حياته جحيما حتى لم يقو على البقاء فيها

وليست هذه الصورة الا رمزا للنفس البشرية التى ليس هناك عمل من الاعمال الا يترك فيها أثره . فهى سجل لكل ما يختلج فى الانسان من العواطف وما يمر به من الانفعالات والرغبات والأعمال

وقد وافق علماء النفس على هـــذه النظرية فى مجمل مذاهبهم فهم

يتادون بأن النفس الانسانية تدخر ما يمر بها من التجارب . ولكنها تلقى تلك الذخيرة فى كثير من الأحيان فى أغوارها الباطنة حتى تبعدها عن ادراك العقل الواعى فلا يذكرها الانسان فى حياته المعتادة مع أنها تكون باقية هناك فى طى الخفاء تعمل وتوجه أفعاله ولا تخمد أبدا . فهذه الآثار الباطنة التى تتسرب الى أعماق النفس البشرية هى السر الذى يكمن فى أعمال الأفراد وهى المحرك الأكبر لهم فى مواقف الحياة . فالأفراد يختلفون فى أعمالهم وتصرفهم اذ وجدوا فى ظروف واحدة وهم انما يختلفون مع أن ظروفهم واحدة لأن تلك الدوافع الباطنة تختلف باختلاف الآثار النفسية المدخرة من الماضى فى الاعماق المخفية البعيدة عن ادراك العقل

فمن الطبائع البشرية التى يكثر علماء النفس من التحدث عنها بلغتهم الغامضة ما يسمونه « بالعقد النفسية » أحيانا . وهم يقصدون بهذا التعبير الغامض معنى بسيطا وان كان من الصعب تصويره باللغة المعتادة ويحاول التعبير عنه فى لغة ساذجة

الانسان كائن حى يعمل على حفظ نفسه بكل وسيلة وهبتها له القدرة الالهية . فهو اذا تعرض فى ناحية من جسمه لميكروب قتال من ميكروبات الامراض ، سارع الدم الى ارسال الكرات البيضاء التى فيه لكى تقاتل تلك الميكروبات وتدفع غائلتها عن الجسم . وعند ما تشتد حرارة الجسم على أثر حركة عنيفة ، تعمد غدد العرق الى افراز سائل مائى وهو « العرق » لكى يتبخر على سطح الجسم ويعيد الحرارة الى اتزانها . واذا حدث التهاب فى بعض أغشية الجسم ، أسرعت بعض الافرازات الى تغطية الجزء الملتهب حتى تحميه من التلف . هذه كلها حيل وهبتها القدرة الالهية للجسم لتساعده

على البقاء فى الحياة . وقد وهبت القدرة الالهية كذلك للانسان مقدرة أخرى على الاحتيال على البقاء اذا قابلته ظروف شديدة تسبب له اضطرابا عصبيا خطيرا ، فاذا كان الانسان يستطيع أن يتغلب على الصدمة التى تصيبه انتهى الأمر بأن تسجل النفس هذه التجربة القاسية فى سجلها وتبقى ذكرى تلك الحادثة ماثلة فى السجل العقلى وتحدث فيه أثرها العظيم الذى نعبر عنه فى كلامنا المعتاد فنقول ان فلانا رجل مجرب أو انه قد حنكته التجارب ، أو أنه رجل خبير بالحياة الى غير ذلك من العبارات الغامضة التى تدل على أنه تعرض فى الماضى لصدمات نفسية أكسبته خبرة ، وسجلت آثارها فى ذاكرته لكى يكون عالما بها ومعناها ، اذا تعرض فيما بعد لظروف مماثلة لتلك التى مرت عليه

ومهما يكن من أمر هذه الآراء فانه مما لاشك فيه أن الحوادث التى تمر على الانسان فى حياته وتهز نفسه وتؤثر فى وجدانه ، لاتمر به عفوا بغير أن تترك فيه أثرها . فالميراث النفسى الذى يتراكم عند الانسان فى حياته ، لا يكون على الأكثر من مخلفات ميراث الأجداد ، بقدر ما يكون من أثر ظروف الفرد نفسه وحياته الخاصة

وقد أدى بحث العلماء الى بعض نتائج يبدو لنا أنها أصبحت ثابتة . رغم كل الاختلاف الذى يقع بينهم فى شأنها . فانهم يكادون يجمعون على أن الرغبات الجنسية ذات أثر عظيم فى حياة الفرد وان كبت هذه الرغبات الجنسية يسبب للفرد أنواعا من الاضطراب يبدو فيما بعد فى حياته فى مظاهر شتى . فقد يبدو فى شكل مرض عصبى وقد يبدو فى شكل نوع من الضعف الاجتماعى فينسب للمرء شعورا بالنقص يلازمه فى كل أعماله فى الحياة

وكذلك يكاد العلماء يجمعون على أن علاقة الفرد بالمجتمع ، ذات أثر عظيم فى حياته . فاذا هو لم يستطع أن يحتل مكانه من المجتمع وينسجم معه من الأسباب أدى ذلك الى خلل نفسانى عميق الأثر ، يلازمه فى كل حياته ويجعله كما يقولون فردا « غير اجتماعى » — أو عدوا للمجتمع ، فى صورة من الصور الكثيرة التى يبدو فيها هذا العداء

فاذا كان شخص مصابا بعيب جسمى مثلا وكان هذا العيب مانعا له من أن يحتل مكانه فى المجتمع كفرد عادى اعترته هزة عاطفية شديدة وتغلغلت فى أعماق نفسه حتى تلون حياته المقبلة كلها بغير أن يشعر بحقيقتها ولا بآثارها . فقد ينطوى الفرد على نفسه ويبعد عن المجتمع وقد يحاول أن يداوى موقفه الشاذ بأن يبحث عن ميدان يبرز فيه ويبرز امتيازه . فاذا كان له فى الفن استعداد أنماه وعكف على اظهار نفسه فى ميدان واذا كان له فى الذكاء امتياز استخدمه وجعله مطية يطمح بها الى السيادة على سواه وكثيرا ما أدى الشعور بالنقص الى تعمد التسلط والطغيان وهنالك أمثلة واضحة على ذلك مثل تيمورلنك الذى كان فى أول حياته شابا ضعيفاً ، يصاحبه عيب جسمى منذ الصغر . فالشخص الذى يشعر بأن فيه عيباً يمنعه من احتلال مكانه يعتريه شعور خفى بالنقص يحمله على توجيه سلوكه فى الحياة توجيها خاصا بغير أن يحس بعقله الواعى انه يقصد ذلك

وقد تحدث الالتواءات النفسية فى الأفراد بغير وجود عيوب فيهم تمنعهم من الانسجام مع المجتمع . وذلك اذا حال بينهم وبين الانسجام سبب من الأسباب كائنا ما كان . وقد يكون المجتمع نفسه هو السبب فى وجود العلاقة الاجتماعية المضطربة إذا كانت نظمه مختلة أو إذا كان خاضعاً

لتيارد عنيفة تتعارض مع حاجات الحياة الواقعية . فاذا كان المجتمع منقسما إلى طوائف غير متساوية فى الحقوق والواجبات تسيطر واحدة منها على الجميع وتبسط سلطانها على جمهور الناس وتوقع به المظالم بغير قيد على سلطتها ، فان الفرد الذى يعيش فى مثل ذلك المجتمع يجد نفسه مضطرا لكبت شعور الكراهة للظلم أو مضطرا للانطواء على نفسه ، مباعدا ما بينه وبين مواطنيه . وقد لا يستطيع هذا ولا ذاك فيعمد الى الثورة على ذلك المجتمع ويأبى الخضوع لمظالمه وفى كل هذه الحالات تنشأ فى نفسه التوترات أو عقد تؤثر فى الخفاء فى سلوكه بغير وعى منه ، وهذه هى التى يمكن أن نسميها « مركبات النقص الاجتماعية » أو « العقد النفسية الاجتماعية » فاذا كنا نرى فى مجتمعنا طوائف من الناس تعتزل الحياة وتزهد فيها وتلتمس حياة الرهبنة مثلا أو تعمد الى الحياة الصوفية فان لذلك دلالته الكبرى . فمثال هذا الاعتزال عن الحياة لا يكثر فى مجتمع الا إذا كانت طروفه تعوق الناس عن الانسجام فيه . ومن الواجب على المجتمع الذى تكثر فيه الرغبة فى اعتزال الحياة أن يبحث عن سبب الخلل النفسانى الذى يدفع الأفراد الى ذلك الاعتزال لأنه قد يؤدى الى آثار أخرى تلحق بالمجتمع أعظم الأضرار وقد يؤدى ذلك الخلل نفسه إلى أن تصبح الحياة مزدوجة قائمة على النفاق وأن يجتهد الافراد فى احداث الانسجام بينهم وبين المجتمع فى الظاهر مع بقاء تباعدهم عنه فى الباطن . وفى مثل هذا المجتمع تنشأ الخيانة وتوجد « الطوابير الخامسة » كما تكثر الجرائم التى تدل على عداوة المجتمع مثل الاعتداء على الاموال والأنفس ويكثر التبذل الأخلاقى وتحدى النظم الخلقية المعترف بها . وذلك لأن الذى أصاب علاقة الفرد بالمجتمع يؤدى الى تحطيم كل

الروابط التى تربط بين الفرد ومجتمعه وعدم الاعتراف بها فى صور من الصور المتعددة التى تتمثل فى الحياة

وقد يتجلى الخلل الاجتماعى فى صور أخف من تلك التى أشرنا اليها فيما سلف . ولنضرب لذلك مثلا واضحا فيما تقع عليه أبصارنا كل يوم . فاذا نحن جلسنا فى عربة ترام أو عربة أوتوبيس ، كان من السهل علينا أن نرى أشخاصا يسترعون الأنظار بأحاديثهم وضحكاتهم العالية ، أو فكاهاتهم الماجنة . وكثيرا ما نرى منهم من يبصق على الأرض بغير احتراس ؛ أو يدوس على أقدام الغير بدون اعتذار ، فاذا وجه نظاره الى ذلك أجاب متحديا بلفظ حانق

فهذه المسالك كلها تدل على أن الأفراد غير منسجمين مع المجتمع الذى يعيشون فيه ولا يسالمونه ولا يعترفون بحقوق أعضائه الآخرين عليهم . وأهم شىء فى نظرهم أن يسترعوا الأنظار أو يجدوا لأنفسهم مكانا فى المجتمع ولو بالعنف

وقد يبدو الخلل الاجتماعى فى صورة أخرى نضرب لها مثلا آخر نراه فى مجتمعنا ولا سيما فى هذه الأيام فانا نشاهد الكثيرين من الأفراد يحاولون أن يقحموا أنفسهم فى صدارة فى المجالس ويحاولون بتصرفاتهم أن يظهروا للغير أنهم من الطبقة الممتازة . وهذا السلوك كثير الوقوع فى المجتمعات التى توجد فيها طبقات مختلفة ، بينها فروق اجتماعية واسعة . فعند ما تحدث التقلبات الاقتصادية السريعة كتلك التى حدثت فى أثناء الحرب تتغير الحالة المالية لكثير من الأفراد حتى يصبحوا أهلا لأن يعدوا من أعضاء الطائفة الممتازة بعد أن كانوا من أهل الطبقة الدنيا . فهم يحاولون بسلوكهم

دائما أن يقاوموا الشعور القديم المختفى فى أعماق نفوسهم بأنهم من الطبقة الدنيا ويعملون جهدهم على الظهور بمظهر طبقتهم الجديدة الممتازة ، وهؤلاء يكونون فى العادة أشد الافراد مغالاة فى التنعم بامتيازات الطبقة التى أصبحوا منها ولعل من أثر حدوث مثل هـــذا الانتقال السريع فى أفراد الطبقات مع وجود الفواصل الاجتماعية الكثيرة بين طبقات المجتمع حدوث اضطرابات اجتماعية خطيرة . فاذا نحن تأملنا فى حال مجتمعنا الحاضر من هذه الناحية كان علينا أن نحذر كل الحذر من المستقبل ونتخذ العدة لمقاومة الفروق الاجتماعية بين طبقات الامة

وهناك مثل آخر نشاهده فى سلوكنا الاجتماعى ، فكثيرا ما نرى من الشبان والشابات من يعمد إلى التحلل من القيود الاخلاقية التى كانت من قبل موضع الاحترام . وهؤلاء لا يقنعون بالتحلل فى صمت وهدوء بل يجاهرون بالتحدى والعصيان

وهـذا السلوك واضح الدلالة على أن هؤلاء العصاة يريدون أن يظهروا نوعا من العداء للمجتمع لانهم لا ينسجمون معه . وهـذا العداء ماهو إلا نتيجة لشعور كامن فى الفرد بأنه منبوذ وهو شعور ناشىء من نضال عنيف بين التقاليـد المتمكنة من النفوس وبين الميول الناشئة من ظروف الحياة الجديدة . وهذا يدل على أن المجتمع مقيد بقيود تقليدية مع تغير الظروف التى كانت سببا فى وجود هذه القيود التقليدية . ولا بد أن ينبهنا هذا المظهر إلى ضرورة إعادة التوازن بين التقاليد الاجتماعية والظروف

وقد قدمنا فيما سبق ذكره أن أكثر مايحدث الاضطراب النفسى نتيجة

الخلل فى العلاقات الجنسية أو فى العلاقات الاجتماعية . فاذا كان المجتمع خاضعاً لتقاليد شديدة تؤدى إلى كبت الشعور الجنسى كبتاً شديدا أو إلى تقييد الحياة الاجتماعية تقييداً شديدا فتعرض ذلك المجتمع لأنواع مختلفة من العقد النفسية التى تظهر لها آثار عجيبة يخيل إلى الانسان أنها لاعلاقة لها بالشعور الجنسى ولا بالقيود الاجتماعية مع أنها فى الحقيقه ليست إلا نتائج مباشرة لها وان أسدل عليها ستار خداع يخفى حقيقتها

فاذا كان المجتمع ينظر إلى العلاقة الجنسية نظرة الريبة ويتشدد فى علاقة الرجال بالنساء كما هو الحال فى البلاد الشرقية إلى عهد قريب - إن لم يكن إلى اليوم - فان أفراد ذلك المجتمع يكونون مضطرين الى كبت الشعور الجنسى ومحاولة اخفاء وجوده عن العقل الواعى ولكن وقع ذلك الشعور الجنسى لايلبث أن يظهر تحت مظاهر خداعة شتى فتصبح نظرة الرجال الى النساء فى مثل هذا المجتمع نظرة غير مباشرة فقد خلق الله الرجال والنساء لكى يحب كل جنس منهما الآخر ويتزاوجا ليحفظا الجنس البشرى . فشعور المحبة من أحد الجنسين نحو الآخر انما هو شعور طبيعى له وظيفة مقدسة ولا يمكن أن يقاوم . كما أنه من الواجب أن ننظر اليه نظرة صريحة ، عالمين بوظيفته الحيوية الخطيرة . فاذا اضطهد هذا الشعور فان الأفراد يضطرون الى توجيهه الى مسائل شتى . ففى ناحية من النواحى يصبح الشعور الجنسى

المكبوت عبارة عن قوة دافعة خفية ، تعمل على اختلاس اللذة الجنسية فى الخفاء ولا تلبث هذه القوة أن تظهر بآثارها الاجتماعية الخطيرة . وليست تجارة الرقيق الابيض « الدعارة » سوى نتيجه لسوء اتجاه الشعور الجنسى المكبوت . والمجتمع الذى يشيع فيه سوء الظن بالعاطفة الجنسية ، يصبح فيه سوء الظن شائعاً بين الجنسين . فيشيع بين الرجال نوع من شعور الصائد المعتدى ويشيع بين النساء نوع آخر من شعور الخداع الذى يؤدى الى الخيانة عند ماتتاح فرصة اختلاس اللذة الجنسية

وقد يتجه الشعور الجنسى المكبوت اتجاهاً آخر مخالفاً لذلك الاتجاه الذى ذكرناه . فبعض المحرومين من النساء والرجال يحاولون التسامى بشعورهم الجنسى ويعمدون إلى تبرير انحرافهم الجنسى تبريرا عقلياً بطرق شتى . وقد يؤدى ذلك التسامى بالشعور الجنسى الى الاندفاع نحو الهيام الشعرى الباكى ، الذى يتغنى بالحب تغنياً عقيما مثل غناء المجنون بليلى وغناء قيس بلبنى . بل قد يتعدى ذلك إلى التغنى بالحب المجرد ، بغير توجهه إلى شخص معين وقد يتجه إلى التغنى بحب ذات عاليا - مثل الذات الالهية أو نحوها - كما هو واضح فى شعر أمثال ابن الفارض

فهذا النوع من فيض الشعور خاص بالمجتمع الذى يسىء الظن بالشعور الجنسى وهو نوع من الستار الذى تضعه الطبيعة البشرية فوق

الحقائق الخفية ، لكى تمكن الافراد من التنفيس عن القوة الكامنة المكبوتة

وأمثال هذه الاغانى الحزينة المنبعثة من الشعور المكبوت ، تؤدى دائما إلى اشاعة أنواع من الشعور الكاذب فى المجتمع وتلون الثقافة الشعبية فى مجموعها بلون خداع من الصفة الحزينة . وهى تقتل فى ذلك المجتمع شعور الحياة الحقيق ولا بد من مقاومته والكشف عن سر مبعثه وعلاجه بالطرق الطبيعية . فالمجتمع لا يمكن أن يصلح للحياة الا اذا كانت مجريات حياته تتجه فى اتجاهها الطبيعى الصريح السليم . ولا يستطيع شعب أن يحيا إذا كان مكونا من أمثال مجنون لبلى وقيس لبنى ، بل يحيا إذا كان مكونا من النفوس الطبيعية الصريحة . مثل خالد بن الوليد الذى لم يتردد فى اظهار محبته للمرأة فى ظروف شديدة كانت تدعو الى التردد والحذر

وهناك مثل آخر من الشذوذ الذى يعترى المجتمع من جراء التقاليد الشديدة الوطأة . فالخمر مثلا تحرم تحريما شديدا فى البلاد الاسلامية ولكن الخمر كانت منذ أقدم العصور تدعو الانسان اليها ، وليس التحريم الشديد للخمر الا دليلا على وجود الميل الانسانى الشديد نحوها . فكل تحريم يدل دلالة قاطعة على وجود ميل انسانى شديد نحو الشىء المحرم . ولكن ذلك التحريم لم يمنع المسلمين منذ أقدم العصور من شربها فى الخفاء مع الشعور بالجريمة . فكان الذى يشرب الخمر يشعر بأنه قد أتى أمرا محظورا ويحاول تبرير جريمته بعقله فيعمد الى التسامى بالخمر الى مرتبة معنوية ليست لها فى الحقيقة . ولهذا نجد فى الأدب العربى بابا عظيما للخمريات ، لانجد مثله فى أى أدب آخر وقد شاع ذلك النوع من التبرير الخداع فى الثقافة الشعبية ، فكثيرا مانجد مجالس الخمر مصحوبة بأنواع من الفن كالغناء والرقص ،

وكثيرا ما قرنت الخمر بالحب فى الشعر . وحسبنا أن نذكر أشعار عمر الخيام لكى نعرف الى أى مرتبة عليا من التقديس رفع الأدب الشرقى شيئين حرمتهما التقاليد وأساءت بهما الظنون وهما الخمر والحب . وقد يطول بنا القول اذا مضينا فى التحدث عن هذه الناحية من النفسية الاجتماعية ، فحسبنا هذا ولننتقل الى موضوع آخر له أعظم الأهمية فى الحياة الاجتماعية عندنا

علاج مركب النقص

يعد مركب النقص أو الشعور بالنقص من أبرز مظاهر الحياة فى عصرنا بل من أقواها تأثيرا فيما نأتيه من تصرفات ونلتزمه من عادات

وكان أول من استعمل كلمة (مركب النقص) هو الدكتور فرويد وقد أشار بها الى الشخص سلبى العاطفة الذى يحسب أن فى أعضائه الجنسية نقصا ما أو يشك فى قدرتها وقد يكون فرويد مخطئا وقد يكون مصيبا عند ما أعلن أن الجنس هو أساس الحياة وأنه عند ما تؤذن القوة الجنسية بالمغيب ويحس الانسان بضعفها ، يبقى شعورا مرا بالنقص والانحدار

على أن الدكتور ادلر وهو أحد تلاميذ « فرويد » ، يقرر أن الشعور بالنقص كامن فى الانسان منذ ولادته وأنه يتبعه فى نموه الذى يسير بطرق شتى لاتمت بصلة الى الجنس

ويستطرد أدلر فيقول ان شعور الطفل الأحول بالنقص ينمو معه كلما عيره أقرانه ، حتى اذا ماشب وأصبح رجلا آثر الابتعاد عن الناس لأنه يستشعر النقص كلما اتصل بهم

وهكذا يدعلم النفس كل تجربة تمر بالانسان وتسلبه تقديره لنفسه بمثابة عامل يرهف احساس النقص فيه ويحرمه من الاستمتاع بصحة جيدة وعقلية ناضجة كعضو عامل فى المجتمع

والرهبة هى لحة الشعور بالنقص وسداه ، فهى ان تحكمت فى تصرفات الشخص لسبب من الأسباب حولت نظره الى الجانب السلبى من الحياة ، فبدلا من أن يقبل عليها ويعمل على تقوية شخصيته وانضاج فكره معتمدا فى هذا كله على نفسه ، يرجع الى الوراء منكمشا مخلدا الى الراحة والكسل كما كان فى أيام طفولته وهو مايسمونه العلماء « بالردة »

ومتى استولت هذه العقلية الصبيانية على شخص من الاشخاص أحجم عن اتخاذ القرارات وتحمل المسئوليات لأن الرهبة تملك عليه عقله وتعود به الى أيام للطفولة حيث الأمان والسلام

وهذا هو عين السبب الذى من أجله نحكم على من نقابلهم من الشبان بأن لهم عقليات أطفال مستنتجين ذلك من خلال تصرفاتهم وأحاديثهم وربما من مجرد مشاهدتهم

والشابات والشبان فى هذا سواء ، بل ربما كان هذا التأثير أبلغ فى الشبات منه فى الشبان نظرا لما يعشن فيه من أجواء التقاليد والتعاليم ، مما يجعلهن أكثر ميلا الى الانزواء منهن الى الاقبال والاقتراب وهن يفضلن فى هذه الحالة أن يخطفهن الزوج أو الخطيب وكثيرا مايترددون فى الاجابة أن فوتحن فى الأمر وتؤثر أكثر الفتيات أن تكل الأمر للوالدين أو أولياء الامر

والشخص الواقع تحت تأثير الرهبة لا يرتد فقط الى طفولته ليلتصق بها بل يظل مترددا ازاء كل ما يلقاه من أمور وحادثات يتعذر عليه أن يتعرف أهدافه أو أن يتبين أغراضه فى جلاء فهو يشك فى مواهبه فيفر من الكفاح فى الحياة ويغرقه الواقع ليعيش هيشة أخرى من صنع الكهول دون سواه أو يضع نفسه تحت حماية شخص آخر وقد يلازم المائدة الخضراء

وربما لجأ مستشعر النقص الى مقارعة هذا الشعور بأسلحة ضارة كأن يلجأ الى التهويش والادعاء والاغراق فى المبالغة ليكمل بها نقصه . ومن المقرر أن كل شخص تبدو عليه هذه السمات التى تدخل فى نطاق « التهريج » يشعر فى قرارة نفسه بالنقص وما هذه السمات الا ستار يحجب النقص مؤقتا

الاحساس بالنقص نوعان

والاحساس بالنقص نوعان : نوع خفيف حديث هو « الشعور بالنقص » والآخر عميق قديم هو « مركب النقص » ولا يمكن وضع حد يفصل بين هذين النوعين كما أنه لا يوجد انسان لا يخلو من الشعور بالنقص فى بعض النواحى الخفية من نفسه

وتأثير العاطفة السالبة فى النوع الأول ضعيف ، أما تأثيرها فى النوع الثانى فهو قوى عنيف الزمن ، فقد سمح للعاطفة بأن تنمو وتشتد حتى تحكمت فى تصرفاته وسيطرت على تفكيره حتى أضحى لها عبداً

والشعور بالنقص فى الانسان أمر ضرورى ولكن العناية بعلاجه وتوجيهه الوجهة النافعة هما حجر الزاوية فى رقى المدنية وتقدم البشرية ،

فلولا شعورنا بالنقص ماظهرت المخـــترعات وما ارتقت الحضارة ولظل الانسان يسكن الكهوف والغابات ولولاه لما ظهر الزعماء والقادة والمفكرون وأصحاب المبادىء

ترى من هو صاحب الأمن والنهى الذى يحرك الآخر : أهو الانسان أم شعوره بالنقص ؟ ان نجاحك أو إخفاقك يتوقف على الاجابة عن هذا السؤال كما يتوقف عليها مدى ما أنت عليه من تأخر أو تقدم فان تملكك الشعور بالنقص وسيطر على عقلك فانه سيقضى على شجاعتك وسيجردك من أطماعك ويجعل منك مجرد ظل ثقيل يأنف الناس من التحدث معه أو الركون اليه لأنه لايثق بنفسه ولا يمكن لانسان أن يثق به

ان كثيرا من الناس يعرفون علتهم ويدركون نواحى النقص فيهم ، ولكنهم لايعرفون كيف يوجهونه ولا كيف يفيدون منه سواء أكان مرجع ذلك الى جهلهم أم الى قلة خبرتهم أو استسلامهم الذى يجعل منهم ضحايا لهذه العاطفة الخاطئة التى يجعلهم يؤثرون الفرار من الميدان على القيام بالمغامرات ، كما يجعلهم يترددون فى تقرير الأمور مخافة الخطأ أو العواقب وربما كانوا معذورين أن لايزال ادراكنا لأمراض العقل وعلله محدودا ، ولم يخلق بعد العدد الكافى من أطباء العقل الذين يستطيعون توجيهنا الوجهة الصحيحة وإرشادنا الى العلاج الناجع . بل إن البشرية لم تهتم بصحة العقل كما اهتمت بصحة الجسم على الرغم من أن أمراض العقل لاتقل شدة عن أمراض البدن . ولعل حرصنا على اخفاء آلامنا النفسية وكبتها فى صدورنا بعض أسباب تأخرنا فى هذا المضمار

ولم يقف تيار العلم دون غموض هذه الحالات ، بل عالجها وتغلب عليها ودرس حالات كثير من العظماء الذين نسمع عنهم أو نقرأ تاريخهم فتبين أن شعورهم بالنقص كان سبب عظمتهم . فيوليوس قيصر كان مصابا بداء الصرع ولكنه تمرد على دائه وأبى أن يخضع لنوباته ويستسلم لمخاوفه فأصبح من عظماء التاريخ . وبتهوفن أعظم موسيقى فى العالم كان يعانى الصمم ومع ذلك فان شعوره بالنقص لم يهدم حبه للموسيقى ، بل صقل فهمه الداخلى لها فأخرج للعالم - وهو أصم - قطعا خالدة . وأصيب الرئيس روزفلت فى صغره بشلل الأطفال وكانت هذه الاصابة التى تحطم الشخصية وتشل قدرة الانسان على الحركة مدعاة إلى تقوية ثقته بنفسه فخلق منها تلك الشخصية التى عرفناها مما سطرت فى تاريخ البشرية والاصلاح من حزم وبراعة فى التفكير وسرعة فى إصدار القرارات

لم يكن أولئك الناس ومن شاكلتهم وهم يعدون بالملايين اخصائيين فى علم النفس . ولكنهم بمفردهم وبقوة إرادتهم حولوا شعورهم بالنقص فارتفعوا به إلى القمة . فالنقص فى حد ذاته لايؤذى الانسان الذى يقابله فى شجاعة وثقة ونشاط

وقد يكون الشعور بالنقص راجعا الى عيب عضوى كالعمى والصمم أو فقدان عضو من الاعضاء وهو مايحدث غالبا عند شديدى الحساسية . ويزداد خطره كلما دق الشعور وأرهف الحس . وواجبنا ازاء هذه الحالات أن نعلم الطفل أو الشاب أن يستعيض عن علته بعمل منتج يرفعه أمام نفسه وفى أعين الناس . وعندئذ يشعر الناس بضرورته ويأخذون أنفسهم

بالمحافظة عليه كما يشعر هو بأنه عضو نافع وبأن علته لم تمنعه من تأدية وظيفته فى المجتمع

والناس لا يأبهون بحالة المعلول بقدر مايهتمون بصفاته الشخصية وبالفائدة أو الخدمات التى قد تعود عليهم منه . وهب أن الشخص أصم أو أعمى فهل يستطيع معارفه الاستغناء عنه إذا كان يحل معضلاتهم ؟ وهل يستطيع رئيسه فى العمل أن يطرده إذا كان من يعتمد عليهم ويوثق بهم . الواقع أن المرء لايقاس بقوة بدنه بل بفائدته للمجتمع وللبيئة وإلا فلماذا فضل الشعب الأمريكى لرياسته روزفلت وترومان على جو لويس الذى تكفى ضربة واحدة منه للقضاء عليهما . إن قوة الشخصية هى التى تميز الفرد عن غيره . وكذلك المواهب الخاصة والذكاء والقدرة والنشاط . وهذه الصفات هى التى تفرق بين الناس فى المركز الاجتماعى وفى الاحترام وفى بسطة الرزق . أما نقصنا البدنى فلا يمكن أن يفصلنا عن المجتمع أو يرسم مابيننا من فروق فيه

فاذا تركنا الشعور بالنقص الناشىء عن أسباب حضرية ألفينا نوعا آخر من النقص ينتاب الطفل المدلل الذى يحس منذ طفولته أنه قرة أعين والديه والمفضل لديهما حتى إذا ماواجهه معترك الحياة خذلته وتلاشت من أمام ناظريه تلك الابتسامة المطمئنة المختالة التى عوده اياها والداه ، وأصبحت الدنيا عابسة ساخرة لاتكبر ولا تهلل لكل عمل يأتيه . كما أنها لم تعد تجيب الحاجات التى كان والداه يسرعان بتقديمها اليه . لهذا كله لايلبث الطفل أن يصيبه القلق والامتعاض

هذا ويسجل علماء النفس ألوانا من الشعور بالنقص فى المدللين . من ذلك

أن شاب التحق بالكلية وأمضى فيها سنته الأولى فلما وافته السنة الثانية كان سقطاما ، فتفقد رغبته فى مواصلة الدراسة وظهرت عليه أعراض النورستانيا وفحص الدكتور « ماكنزى » حالته فوجد أنه أتم دراسته الثانوية وكان كل همه أن يكون ممتازا فى فصله ، أما العلم نفسه فلم يكن له عنده قيمة فى ذاته ولكى يحتفظ بدلاله كان يؤدى واجباته على أتم وجه وأكمله

ولكنه لما التحق بالكلية خانه ذكاؤه وفاز عليه أقرانه وتعذر عليه أن يواجه الموقف الجديد فتحطمت أعصابه . ولما درس « ماكنزي » تاريخ طفولته وجد أنه كان وحيد أبويه فكان شغلهما الشاغل ولذا فقد كان يحرص على أن يكون قبلة مجتمعه كما كان قرة عين والديه ولكن المجتمع لم يقدر آراء هذا الشاب كما كان يقدرها والداه ولم يشجعه كما شجعاه ولم يحدب عليه حدب أمه ، فقد كانت تصرفاته وآراؤه غريبة عن الناس كما أنهم نفروا من نزعاته الغامضة التى لم يكن لهم الى فهمها من سبيل

وكثيرا مايخفق مثل هـــذا الشاب فى أعماله نظراً لتغلب القلق عليه وخوفه من مواجهة الحياة على مافيها من خير وشر ، فقد جبل على أن يرى الجانب اللين الرقيق منها

الطفل المكروه

ولا يقل احساس الطفل المكروه خطورة عن احساس الطفل المدلل . ومن أمثلة ذلك الأطفال الذين يولدون وليس لأبويهم حاجة لهم ، فيشبون وهم يحسون كره الناس لهم وعداوتهم فيقعون تحت تأثير هذا الكره

المتواصل فلا يعرفون للصداقة معنى ، كما لا يقدرون التعاون والتفاهم وحين يصبحون رجالا ، يلازمهم شعورهم بالنقص فيثير ارتباكهم كلما واجهوا الجنس

« ومركب النقص » الذى أسنده مستر بيفن وزير الخارجية البريطانية وهو يدافع عن « تصريح الجلاء » فى مجلس العموم ، الى الأمة المصرفة فقال إن هذا التصريح كان ضروريا لمعالجة ذلك « المركب » بادىء ذى بدء ، عملا على تصفية جو المفاوضات من الشوائب وتمهيدا لنجاحها — مركب النقص هذا ماهو ؟؟

لقد كثر ترديد هذا العبارة - مركب النقص - منذ أوائل القرن الحالى أى منذ بلغت البحوث فى الأحوال النفسية حدا من الاستفاضة والعمق صاريت معه « علما » قائما برأسه متميزاً عن غيره من العلوم . على أن معناها لم يبرأ قط فى أذهان الناس من بعض الغموض . فقد قيل فى تفسيرها مثلا أنها تصف حالة « الشخص السلبى » أو انها تعلل « سلبيته » ، ولكن هذه أو تلك لا تعدو أن تكون مصطلحات علمية أو فنية يفهمها ويفهمها العلماء ومن يليهم من طلاب العلم . أما القارىء المستنير فها نحن أولاء نحاول أن نجلوها له فى هذه السطور (١)

ونبدأ فنقول إن الدكتور فرويد العالم النمساوى الشهير هو مخترع هـــذه العبارة — عبارة مركب النقص — وقد أطلقها على الشعور الناشىء من احساس المرء (أو المرأة) بنقص أو قصور فى طاقته فى الوقت الحاضر

(١) الدنيا الجديدة

ومن وجوه مركب النقص أن الأعضاء التناسلية لاتتم معها العملية على وجه مرض لأحد طرفيها أو للطرفين معا . ويقول فرويد إن هذا الشعور يحمل صاحبه على تكلف ستر أسبابه بكل حيلة ووسيلة لاعتقاده أنها عيب يزرى بكرامته ويبث فى نفسه « خوفا » شديدا من افتضاح هذه الأسباب . وان هذا الخوف يتسرب من عقله الواعى الى عقله الباطن ويستقر فيه أى أنه يملك عليه حواسه ويصبح حافزاً رئيسيا من حوافز تصرفاته وطبيعة ثانية يصدر عنها فى كل أفعاله

وقد ذهب فرويد الى أن هذا الخوف الجنسى السبب والعلة،لا يلبث أن يكتسب صفة العموم والشمول ويطغى على حركات المرء وسكناته لا فيما يتصل بالمسائل الجنسية وحدها ولكن فى غيرها من شئون الحياة وصروفها فيصبح المصاب به « سلبيا » ينكمش عن العمل ويميل الى العزلة والانزواء بدلا من أن يكون « إيجابيا » صاحب حزم وعزم وعمل واقدام

هذا رأى فرويد وقد خالفه فيه العلامة ادلر أحد المشاهير من تلاميذه رد « السلبية » الى أسباب متنوعة فى البنية والوراثة وأبى أن يقصر نشأتها بادىء ذى بدء على العلة الجنسية دون سواها وذهب الى أنها أنواع كثيرة لها علل لاتحصى . فالطفل المصاب بحول فى عينه مثلا والذى صار لذلك محل سخرية أترابه فى المدرسة ومعاكستهم،يركبه الخوف من الاستهداف لهذه السخرية فيغوص الى عقله الباطن أو قل يملك عليه حواسه ومشاعره ويميل به الى ستر هذا العيب من طريق العزلة والانزواء فيصبح هذا الميل طبيعة ثانية له لايقتصر على محاولة ستر العيب أو العلة الأصلية عن الغير بل

تطغى وتسرى حتى تحيله « سلبيا » فى تصرفه مجردا من الهزم والاقدام وقس على علة الهول غيرها من العلل والنقائص

على أن اختلاف فرويد وتلميذه فى تعليل هذا الخوف الذى يسميانه « مركب النقص » على الوجه المتقدم لم يمنع اتفاقهما على أنه لا يدفع دائما إلى الإنزواء ويسوق الى التردد والهزيمة . فقد قرر كلاهما أنه يختلف الأثر فى الطبائع المختلفة . فبينما يكون لبعضها هذا الأثر « السلبى » اذا هو يدفع فى بعضها الآخر إلى مظهر مصطنع من التوثب والاقدام . فاذا كان أصل العلة نقصا جنسياً مثلا ذهب المعلول فى ستر احساسه بها الى اتخاذ مظهر أو مسلك مناقض لها وإذا كان أصل العلة هو هذا الهول السيء المظهر تجاهله المعلول بناتا وبدا كأنه لا يدركه أو لا يعترف بوجوده . وآفة هذا التصنع هى المبالغة التى تصاحبه دائما وهى التى تفضح الحقيقة لذوى البصر من علماء النفس أو حتى غير هؤلاء العلماء من عامة الناس الذين علمتهم التجارب أن المبالغة و « الصداغة » تدلان على النقص وعلى الخوف أكثر مما تدلان على الكمال والاطمئنان

ونحن اذا أخذنا بتعليل ادلر وذكرنا أنه ما من انسان تقريبا الا فيه ناحية من نواحى النقص أو الشذوذ يجتهد فى إخفائه أو تمويهه ويخاف من ظهوره وافتضاحه ، يخلص لنا أن الكثرة الساحقة من الناس على الأقل لا تخلو من الخوف الذى يوجد النقص أو الشذوذ ماديا كان أو معنويا أى أن « مركب النقص » المشهور يكاد يكون مستقرا فى العقول الباطنة جلها ان لم يكن كلها أو إن شئت فقل مستقرا فى النفوس كافة

وقد وصف كل من فرويد وأدلر سلايا هذه الحالة النفسية غير اننا نرى قبل أن نختم هذه الكلمة أن نعود عودة قصيرة الى بدايتها فقد أشرنا الى استعمال وزير الخارجية البريطانية عبارة « مركب النقص » فى دفاعه بمجلس العموم عن إصدار تصريح الجلاء ولم تكد تبدأ المفاوضات بين مصر وبريطانيا ، على حين كان المعقول فى رأى المعارضة (أى المحافظين) أن يكون هذا التصريح نتيجة للمفاوضات لا تمهيدا لها

فهنا يبين ان « مركب النقص » غير مقصور على الافراد بل هو يعمل عمله فى العقل الباطن الجماعى للامم ذاتها . وتفسير ماذهب اليه مستر بيفن هو أن الامة المصرية قد اشتد شعورها بتناقضة الاحتلال للاستقلال وتحول خوفا من كل حقيقة او شبهة تمس هذا الاستقلال ثم هبط هذا الخوف الى عقلها الباطن ، وأصبح طبيعة ثانية لها تصدر عنها فى تصرفها وتندفع بقوتها الى المغالاة والمبالغة فى توقى مايمس هذا الاستقلال او ما يخيل اليها انه يمسه ، فأراد مستر بيفن ان يجتث ذلك الخوف من أساسه فينتقل معه كل مبالغة أو اغراق ، وهكذا يصفو الجو وتعبد طرق المفاوضات بعد أن تمحى منها هذه العقبة

ولقد جرى بعض الأفذاذ من الكتاب البريطانيين المشهود لهم بغزارة العلم وسعة الاطلاع على اسناد كثير من فساد الحكم والسياسة

إلى مايسمونه « جهل » رجال الحكم والسياسة وتخلفهم عن مسايرة قافلة العلوم فى تقدمها المطرد المستمر - رجال الحكم والسياسة الذين يرفعهم رجل الشارع « الجاهل » الى منصة الحكم عن طريق النظام الحزبى والانتخابات ، فيحول بعدهم عن التفكير العلمى بينهم وبين إدراك ماتفيده الهيئة الاجتماعية التى يحكمونها من اقتباس الكشوف العلمية الجديدة وادماجها فى نظم الحكم وأساليب السياسة فجمدت تلك النظم والأساليب وقصرت عن مجاراة روح العصر الذى تعيش فيه وحالت دون كل تطور محمود

الـــبرانزيا

لم يصل الانسان بعد الى درجة الكمال المطلق ، لأن كلامنا ولاشك يفتقد الكمال فى كثير من نواحيه ولذلك بات من الواجب علينا أن نلم بمواطن النقص فى أشخاصنا وان نعرفها كما هى وان نذكر ان لاشىء يمكن عمله حيالها ، معتمدين فى التقدم بأنفسنا على دفع نواحى النشاط التى تمتاز بها بقدر عادى منتج قدماً الى الامام

واذا علقنا أهمية كبيرة على قوى عقلية او فنية او اية قوى أخرى لاتمتاز بها فى مدى واسع ، فقد يفضى بنا المطاف الى ان نتخيل اننا نملك هذه الصفات فى محيط أوسع من حقيقة تحلينا بها وفى هذا

فالعلة لأنفسنا يظهر أثرها فى مجرى تفكيرنا

فاذا تظاهرنا بما ليس فينا فاننا نخدع بذلك انفسنا وهذا قد يؤدى بدوره الى خداع الآخرين وذلك انكى - ولما كان الانسان هو الحيوان الوحيد القادر على خداع نفسه ، فقد امتلأت حياته بالكثير من المشكلات نتيجة لهذا الخداع ولعل فى حقيقة إخفاء النقص الكامن فينا عن انفسنا ما يدفع الى تولد عقدة مركب النقص ، وهى الحلقة الثانية التى تلى الشعور بالنقص فيختار الفرد مرحلة « الشعور بالنقص » وهو امر لايعيب ، الى مرحلة تكوين « مركب النقص » الذى يعد جريمة فى حق انفسنا لما يترتب عليه دائماً من التظاهر الكاذب بما ليس من طبائعنا

ولما كنا فى محاولتنا إخفاء ما يعترينا من نقص احتمال التعزية ، مثلنا فى ذلك مثل الطفل المفطور على عدم الثقة والخجل والغلبة على امره ؛ يعمد الى السير فى خيلاء والتحدث الصاخب كتغطية لحقيقة شعوره بنقصه وتعزية له ، فان الكثيرين يعمدون الى تعزية انفسهم حين يدركهم الاخفاق ، بتخيل النجاح وإفساح صدورهم للخيالات واحلام اليقظة ويمعنون فى هذا التوهم حتى ينقلب الى إيمان او فى القليل الى تظاهرهم بأنهم يملكون هذه القوى وان كانوا فى حقيقة الامر يتراجعون ويهربون كلما واجهتهم تجربة صادقة . وغالباً ما يصيبهم بعد هذا - كرد فعل لعجزهم عن مواجهة التجارب التى

تصادفهم — أمراض كالصداع والقلق واليأس والأرق وفقدان الشهية والكثير من العوارض المرضية التي ليس لها كيان حقيقي في عالم الأمراض وان كان في استطاعة العارف بحقيقة وضعهم ان يدركها بسهولة . وفي ظهور مثل هذه العوارض ليس الواقع الا رد فعل للشعور بالنقص ودليل على بدء تولد عقدة « مركب النقص » الذي يخلق بدوره خداع النفس

ويخطىء الكثيرون ومنهم بعض الصحفيين ، في تفهم معنى اصطلاح « مركب النقص » فيستعملون الاصطلاح كتعبير عن حالة إدراك المرء لحقيقة نقصه في بعض النواحي . وهذا شيء يختلف تمام الاختلاف عن « مركب النقص » في حقيقة معناه

البرانويا

وينشأ مركب النقص أول ما ينشأ على هامش الشعور ، حتى إذا اشتدت وطأته انقلب الى « البرانويا » . وأعني بالبرانويا ميل بعض الناس إلى اتهام الغير وإساءة الحكم عليهم والشك فيهم على غير أساس والاحساس بأنهم يعملون ضده في الوقت الذي لا يسلكون هذا المسلك حياله . والتفسير العلمي لهذه الظاهرة هو ما يحمله أمثال هؤلاء المرضى من بغض وعداوة للآخرين لا يستطيعون كبح جماحها

أو السيطرة عليها نتيجة لعدم ادراكهم حقيقة ماهم مصابون به

ويمتاز الانسان المصاب بالبرانويا ، كما ظهر من دراستها ودراسة هوارضها بميله الى الابتداء فى العداء والعزوف عن الجنس الآخر لأن الحب الذى يتولد فيه لايلبث أن ينقلب فى اللاشعور الى عداوة وبغض يصبهما على الغير لاعتقاده الباطن ان الغير يكرهونه . ومن ثم يضطهدونه ويترتب على ذلك أن يصبح الشخص الذى كان يحبه او يود لو احبه . عدوا له ، لما يتولد فى توهمه أن هذا الانسان يضطهده

الجمالومينيا

ولعل الشعور بالاضطهاد هو الخطوة الأولى التى تؤدى إلى البرانويا ، والتى اذا استفحلت انقلبت الى « ميجالومينيا » أو جنون العظمة

والميجالومينيا ان هى إلا افتراض المرء انه مضطهد ، ثم تساؤله « لماذا يجمع كل الناس أمرهم ضده ؟ » ولا يلبث ان يجد جوابا لهذا التساؤل . انه لابد ان يكون انساناً ذا اهمية ؛ حتى يتعاضد الجميع على معاداته . وقد يتمادى فى هـــذا الوهم فيتخيل نفسه مبعوثاً آلهيا له رسالة معينة

هذا والاتجاه البرانويدى يختلف فى مظهره عن حقيقة البرانويا لانه

يبدو فى مدى أوسع فى أشخاص عاديين يسلكون سلوكا سويا تحت ضغط حالات عقلية خاصة تدفعهم الى اساءة فهم حقيقة بعض الانفعالات والنيات وليس ضروريا أن يكونوا دائمى الشك والريبة فيتأهبون للدفاع عن أنفسهم فى الوقت الذى لايدبر أحد لهم فيه مكيدة ، أو يسعون إلى الفرار فى وقت لا يتعقبهم فيه أحد

لاريب فى أن هتلر كان يعانى شيئا من استشعار الاضطهاد مصحوبا بشىء من جنون العظمة فى الوقت الذى آل فيه السلطان اليه . ولعل نظرته لليهودية والماسونية ليست سوى رد فعل للبرانويا التى كان يعانيها ، كما أن فى الاتجاه الذى سار فيه من الارهاب يجب أن يقابل بالارهاب ، ما يدل دلالة أكيدة على تغلب البرانويا على شخصيته ، لقد كان هتلر دائما فى حالة دفاع ، مسلحا نفسه ليتقى شر عدوان كان يتخيله ولو أن هذا العدوان قد تحقق فعلا ولكن نتيجة لما فعلت يداه وقد ملأ الشعب حوله بهذا الشعور وخاصة عند ماقبض على السلطة بيديه ولم يكن مستغربا أن يفقد الشعب الطريق السوى لأنه كان منقادا ؛ كما خيل له وراء رجل يؤمن بنفسه ومن ثم وجب عليهم أن يؤمنوا به ، فاندفعوا وراءه خطوة فخطوة ووسع هتلر أن يجمع حوله جماعة من الأفراد يستشعرون الاضطهاد كما يستشعره قائدهم

ولكن البرانويا فى حقيقة أمرها لاتكتسب وانما تولد فى الفرد وان كان من اليسير أن تتخذ صورة اجتماعية فتكتسبها الجماعات وقد قال علماء النفس بأنه حين تتكون جماعة ما ، تصبح البرانويا طابعا عاما لها وهذا الأمر الطبيعى فى نفسية الجماعات ، قد ينتقل اليها بالعدوى

ومما لاريب فيه أن الجماعات بمختلف أنواعها تميل الى استشعار العداوة نحو الجماعات الأخرى ، حتى اذا مادعى داعى الصراع ووقع عليهم اعتداء انقلبت هذه العداوة واستشعارها مرض البرانويا (جنون الاضطهاد)

ومن أجل هذا لها سوف تصبح ألمانيا مشكلة من أكبر المشكلات السياسية والاجتماعية فى جيلها القادم ، مشكلة تستلزم حلا علميا خالصا وسنرى من رجال ألمانيا أنفسهم آراء ذات قيمة فى هذا المضمار ، بل أنها ستكون مشكلة الجيل القادم كله لأنه ان يمكن تركها معلقة بغير حل ، فانه لأسهل على قنبلة ذرية أن تزيل مدينة بأكملها من الوجود من أن تمحو حالة اقفار عقلى

ويجب أن تتكاتف علوم الاجتماع والنفس والسياسة على درء هذا الخطر الذى يتهدد الجيل القادم

النورستانيا

يقول البروفسور هندرسون ، والدكتور جونس ، العلامتان المعروفان أن مرض النورستانيا أصبح فى السنوات الأخيرة يهدد الصحة العقلية فى العالم على صورة مخيفة واسعة النطاق ، وأن علينا أن نبذل فى مكافحته أضعاف ما نبذل فى مكافحة السل والسرطان والروماتزم . وفيما يلى خلاصة مؤلف ممتع للعلامة الكبير جراهام ، وضعه مع أحد زملائه لتصوير هذه الظاهرة الخطيرة من الشذوذ النفسى والعقلى فى الانسان وهى النورستانيا

بدأت تسيطر على العالم ؛ فى أعقاب الحرب العالمية الاولى ؛ موجة

من التطور الصناعى والتجارى ـ كان لها أثرها الكبير فى طغيان « النورستانيا » على معظم الافراد فى مختلف الامم . ومرجع ذلك الى أن هذا التطور المادى الجديد . لم يكن له مقابل من تطور نفسانى يسايره ويهذبه ويسمو بأهدافه ، فارتسمت أمام العالم الجديد صور تبعث على فساد النفس البشرية ، مرجعها تعدد المطامع التى خلقتها المدنية الصناعية والتى لم تجد فى أساليب سلوك الانسان وتربيته ما يمكنه من مواجهتها

حقيقة النورستانيا

وليست النورستانيا ـ كما يزعم البعض ـ مرضا فى الجسم ، وان كانت وثيقة الصلة به وانما هى مرض فى النفس والقوى العقلية . وليس صحيحا دائما ما يقول به البعض من أن ارهاق الجسم بالعمل يعد أهم عامل فى الاصابة بالنورستانيا ، فارهاق الجسم قد يؤدى الى الامراض العضوية . ولكنه لن يؤدى الى الأمراض العصبية (النورستانيا) . وانما سبب ذلك هو ارهاق القوى العقلية وقيام التنازع الطويل بين العقل الباطن والعقل الواعى ، فالأول يريد أن يطلق الى عالم الظهور ماسجله منذ الطفولة الباكرة والثانى يمنعه ويحبس فيه رغبته ، لان العقل الواعى هو المسيطر وهو فى الوقت نفسه خاضع لأنظمة الجماعة وتقاليدها ومن هذا الصراع بين العقلين تشتد النفس وتنشأ النورستانيا

مركب النقص

يرجع العلامة « فرويد » جميع الأمراض النفسية الى شيء واحد ، هو مايسميه « الانحرافات الجنسية » وما ينشأ عنها بسبب كبت الغريزة الذى كثيرا ما يعمل الانسان على التخلص منه بأسلوب غير عادى ، يتمثل أخيرا فى هذا الوضع الشاذ ، أعنى أعراض النورسثانيا والشذوذ العقلى

على أن تلاميذ « فرويد » لايتفقون مع أستاذهم فى ذلك وانما يعدون ماذهب اليه واحدا من أسباب عديدة أهمها وفى طليعتها « مركب النقص »

والواقع أن هذا عامل رئيسى بسبب مرض النفس لأن الشعور بالنقص يقف دائما على باب هذه الحياة ينتظر الجنين منذ اليوم الذى يخرج فيه من بطن أمه

والطفل بطبيعته وبحكم ظروفه الخلقية وتكوينه الجثمانى محوط بهذا الشعور بالنقص الى حد يصعب التحرز منه . فمثلا الطفل الذى يرى سترته معلقة فى مكان مرتفع لاتصل اليه يده ويريد أن يرتديها يلجأ الى أبيه أو أمه لاحضارها له . هذا الشعور منه بالعجز يسجله له عقله الباطن

هذا مثل مما تهيئه الطبيعة للطفل كى تشعره بنقصه . أما الأمثلة على ما تهيئه التربية الخاطئة والمعاملة السيئة فكثيرة متعددة على أن أهمها جميعا القسوة فى التربية والافراط فى التدليل

العقل الباطن

ولكى تدرك خطورة دور العقل الباطن فى حياة كل انسان ، نذكر لك الحقائق الآتية :

تعد النفس عقلا ذا وجهين . أحدهما واع ، والآخر غير واع وهو ما يسمى بالعقل الباطن . والعقل الواعى يبدأ عمله تقريبا فى سن الخامسة أما الباطن فيبدأه منذ الساعة الاولى لولادة الطفل وليس عمله الا الحركات العضوية غير الارادية والضرورية للحياة كالنبض والتنفس ثم تسجيل كل أثر شعورى الما تراه عينا الطفل وتسمعه أذناه أو للمعاملة التى يعامل بها . والعقل الواعى يتحكم فى الباطن إذ أن الاول منظم حديث يتأثر ويخضع لتقاليد العصر والبيئة وقوانينهما . أما الثانى فسجل قديم يريد دائما . وحينما يكبر الطفل أن يبرز مظاهر الشعور التى سجلها منذ الطفولة ولو كان فيها ما يخالف نظم البيئة وقوانينها . ومن هذا التصادم فى القوى العقلية - كما سبق القول - يقع الشذوذ النفسى ، وتنشأ النيورستانيا .

هما بذرتا مركب النقص فى الطفل ، حتى إذا كبر جنى منهما أخبث الثمار وألعنها . وفى هذا نسجل الحقائق الآتية :

بين المعاملة القاسية للطفل وبين معاملته بالتدليل نوع وسط هو الذى يحميه من الشعور بالنقص .

إذا عجز طفلك عن شيء ففسر له سبب ذلك . فاذا كنت تخاف عليه من الخروج الى الشارع فى الليل مثلا أو أن يطل من نافذة عالية فلا تمنعه بالأمر والنهى فحسب بل اقنعه بما يساير عقله ولايشعره بقصوره أو عجزه وحاجته دائما إلى من يحميه .

اذا وجه اليك طفلك أسئلة فاجبه عليها فان كان فيها مالا تلائم الاجابة عنه سنه وعقله فاصرفه عنها بحيث لايشعر بأنك تفعل ذلك لعجزه عن الفهم أو القدرة على تتبع الموضوع .

وجه أنت الى طفلك بين وقت وآخر أسئلة بسيطة كأنك تستأنس برأيه أو بمشورته فتغرس فى نفسه بذور الثقة بنفسه .

لاتحدث طفلك عن المسائل والمرئيات الجنسية ولكن إذا حدث ظرف طارىء وقعت فيه عيناه على أحدها فحاذر هنا أن تخفيه عنه ولاتنهره بل حدثه عنه كأنه شيء عادى تماما فبذلك تستطيع أن تجنبه الوقوع فى الكثير من الأخطاء الجنسية وتتفادى به الكبت والشذوذ وغير ذلك من بذور الامراض النفسية وخاصة مركب النقص .

هذا وقد ثبت ان الرياضة خير ضمان لتفادى الشعور بالنقص فهيء لها طفلك وما نظن احدا يجهل عظيم فوائدها للأجسام .

التعويض.. والافراط فيه..

ومادام في النفس شعور بالنقص فلا بد ان يلازم الانسان شعور آخر هو شعور الرغبة في التعويض ومن ثم الافراط فيه.

هذا مايقول به « الفريد آدلر » مكتشف القانون النفسي المعروف بقانون التعويض.

ويجب التسليم بأن شعور الرغبة في التعويض كثيرا مانفع ولايزال ينفع اولئك الذين كان مبعث شعورهم بالنقص هو تكوينهم الجثماني الذي خلقوا عليه: كالمكفوفين البصر او الذين ولدوا وفي استتهم عقد فحاولات امثالهم في التعويض انما هي رد على الشعور بالنقص الحقيقي الذي تركتهم عليه الطبيعة.

أما رغبة التعويض عن الشعور بالنقص الناشيء من سوء تربية الطفل كما ذكرنا فتعد ثورة على طبيعة الحياة نفسها وأصحابها يصبحون حينئذ أفرادا غير عاديين أي مرضى بالنوروستانيا.

وأول خطر تسببه هذه الرغبة هو مايسمى « بأحلام اليقظة » لك أن يتوهم المصاب بمركب النقص لنفسه من صور النجاح والقوة يرى فيه عرضا عن واقع إخفاقه وضعفه. ومانزال نهيء له تلك

الصور من مظاهر المجد مايضع نفسه به فى مصاف الآلهة والأنبياء والأبطال ثم يكون هـــذا أول خطوة له الى مستشفى الامراض العقلية .

وقد تكون رغبة التعويض ناشئة عن اهمال الوالدين للطفل فيشب وهو يحتقر عقليته ومن ثم يعوض ذلك بالاستعلاء على الآخرين فيحسبونه متكبرا ، ولو عرفوا الحقيقة لالتمسوا له العذر اذ أنه فى الواقع مريض .

وقد يكون الوالدان أنشآ على القسوة ، فشب يتجه الى حب السيطرة والعناد والتهور فى الحياة العامة

واذا كان الوالدان قد أشبعا طفلها تدليلا فقد تتجه به رغبة التعويض الى التحوط والحذر فى الكبر ثم لايلبث أن تتحول هذان الى خوف دائم ، ووساوس مقلقة

وهذه رغبة تعد فى حكم الغرائز التى تولد مع الطفل ويتوقف الانتفاع بها على مدى احسان توجيهها بالتربية السليمة لتظل تدفع صاحبها الى الأمام ولا بد أن تتوازن هذه الرغبة فى نفس كل انسان مع رغبة أخرى هى رغبة الاختلاط والمشاركة والتعاون . وبدون هذه الرغبة لاتكون للرغبة الأولى أية قيمة ، فرغبة الاختلاط تحد من رغبة القوة فتنظمها داخل حدود تنأى بها عن الأنانية وشهوة السيطرة . كما أن رغبة القوة من شأنها تنظيم رغبة المشاركة والاختلاط ، بحيث تبرزها على صورة لاتخالطها روح التواكل أو التخاذل أو الضعف

الحقائق الجديرة بالذكر

والآن نضع أمام القارىء الحقائق الآتية :

لاتنشأ النورستانيا فى القوى الجثمانية بل العقلية والنفسية

ينشأ هذا المرض من عدم الاستقرار فى العمل والحسم فى مكانة الحكم على مكانة العمل من رغبتك

مركب النقص هو السبب الرئيسى لهذا المرض النفسى

الذى ينقذك من هذا المرض ليس مجرد الرغبة فى التخلص منه . بل براعتك فى تجديد نفسك وجعل أفكارك متمشية فى الحياة على ضوء الجديد من معلوماتك

لاتنس أن الصداع وفقدان النشاط قد ينشآن من مركب النقص وقلق النفس

العادات الجنسية السيئة لاتسبب النورستانيا بقدر مايسببها الانكماش عن الناس

النورستانيا لايمكن أن يسببها المجتمع الذى تعيش فيه بل منشؤها فى النفس

لاتغرز فى نفسك بذور الأمل ، دون أن تغرز الى جـــوارها بذور الصداقة مع الناس

القسوة على الطفل تغرس فى نفسه الشعور بالنقص وتذليله يجعل منه رجلا غير صالح للبقاء

لن تشعر بالسعادة مادمت تسمع لشعور الخوف يسعى اليك . ولن يأتيك هذا الشعور الا اذا اعتقدت أن قواك النفسية تنهار

كن دقيقا فى تخير مثلك العليا

لاتخدع نفسك ، وواجه الحقيقة دائما ولا تكن خياليا الى حد الجنون والوهم أو واقعيا الى حد الجمود

لاتعتقد أبدا أنك أسمى من غيرك فان ذلك يحملك على الظن بأنك من أصل غير عادى ومن ثم تصاب بالنورستانيا .

كن واثقا دائما من نفسك ولا تحتقر غيرك .

طرائف من جنون السيادة

اجتاح مجاعة الأسطول الروسى فى عهد بطرس الأكبر وباء شديد(١) فتساقط الكثير منهم موتى أو مرضى ، وكان القيصر مزمعاً أن يبعث الأسطول فى مهمة ذات خطر وساءه أن يمرض البحارة ، فأصدر أمرا قيصريا بأن يشفوا فى الحال !

وأمرت إحدى إمبراطورات الصين زهور حديقتها بالإينع ، فلما « رفضت » الزهور إجابة الأمر فى الميعاد المحدد ، أمرت بها الحاكمة بأمرها فقطعت

وثارت الأمواج مرة فحطمت قنطرة لكسرى ، فأمر بأن يضرب لاثمائة سوط

---

(١) عن كتاب لجون كنكر .

العقل في الجنون

عند « ج . ه . إستبروكس » أستاذ علم النفس بجامعة كولجبيا في مقاله في مجلة « سينتفيك أميريكان » : أنه لكي ندرك معنى الجنون ينبغي أن نعلم أن جميع الناس إنما يسعون إلى غاية واحدة هي : « السعادة » . وكل امرىء منا لم يزل ينقاد لعلم من السعادة حتى بلغ حالته الراهنة وهذا الباعث نفسه هو الذي يرسم له طريق المستقبل . وهذا مانسميه في علم النفس « مبدأ اللذة »

ومهما يبد الأمر غريباً فإن المجانين خاصة من بين سائر الناس عقلاء إذا حكمنا بالنجاح الذي يصيبونه في هذا المطلب الكبير . فانهم ؛ من حيث هم جماعة ، قد بلغوا غاية « السعادة » . خذ مثلا من بعد نفسه « نابليون » في أحد مستشفيات المجانين فهو يكتب لك إذا - ماسألته - شيكا بمبلغ مليون ريال أو يقطعك دوقية في فرنسا ، إذ يعتقد أنه وافر الغنى واسع السلطان فتقول : ياله من مسكين ! إنه مجنون ! »

إن عقول المجانين تعمل عملها كما تعمل عقولنا إلا أنها تعلو في ناحية أو تتهالك في أخرى . إن بنا ميلا شديدا الى التفكير فيما يسر ونتجنب مايؤلم ، فاذا فحصت أشد أفكارك ايلاما لك ، فستجد أن أكثرها يجيء لك ناحية من الرضا . فقد يشغل بالك أمر أسرتك التي نزل بها الفقر ولكن يصحب ذلك أن ترى نفسك في صورة بطل مجاهد يسعى لانقاذها ، وقد يرضيك ذلك غاية الرضا . إن « مبدأ اللذة » هو المفتاح الذي يفض لك أسرار الجنون وما ذلك الا أن المجانين قد عرفوا أكثر مما عرف ، كيف

يتجنبون الألم ويظفرون بالسرور . خذ مثلا حالة الجنون الهادىء وهى أكثر حالات الجنون شيوعا فترى الرجل يجلس اليوم كله يحدث نفسه ، يبتسم بين الحين والحين راضيا كل الرضا عن الدنيا وما فيها . وقد تجد لديه تفسيرا عجيبا لما يزعمه من أن جوفه من الذهب الخالص ! ! أو أنه على اتصال لاسلكى بكوكب المريخ !!

ولكن لاتنس أنه سعيد فانه يعيش فى دنيا من الأحلام ، إلا أن أحلامه هذه هى عنده حقيقة واقعة . ولذلك فلا ينتظر لحالته شفاء فهو ينعم بما هو فيه من جنون ويصر على البقاء على حالته هذه . لقد حل المجانين مشكلة الحياة . انك تريد الثراء - وهم قد وجدوه . إنك تطلب السلطان - وهذا شاب « هو » عند نفسه نابليون . وأنت تضحك وتقول : إنه مجنون ! ! ولكن ما الذى تطلبه أنت ؟ السعادة ؟ هل ظفرت بها ؟ نعم ظفرت ببعضها هل أكثر تقدير - وقد تكون شقيا كل الشقاء . أما هو فراض عن نفسه حتى إنه ليأبى أن يضيع بعض وقته فى التحدث إليك

انه مرض لا يمكن شفاؤه لأنه لا يريد أن يشفى من سعادته . أفلست ترى بعد ذلك أنه عاقل حكيم ؟ فأنت تكد وتجاهد وتحمل الهم ويغلب أن تنتهى حياتك وأنت فى فقر قل أو كثر . أما هو فلا يعمل عملا ويبنى بالطمام ولا ينزل بساحته هم ويقضى مثريا من أصحاب الملايين ، نعم ولعله ينظر اليك ثم يقول : « يا للمسكين ! إنه عاقل ! »

السلوك السيكوباتى

« فى مشكلة السلوك السيكوباتى » يقول الدكتور صبرى جرجس أنه أساس الأبحاث فى علم النفس الطبى الاجتماعى . ويجب أن نتفطن إلى نقطة هامة فى دراسة علم النفس . إن كانت بعض العلوم الوضعية التجريبية صالحة فى كل مكان فان علم النفس الحديث يحاول أن يدرس الانسان فى بيئته ، إذ ثبت أن للبيئة أثراً كبيراً فى تكوين الشخصية . ولذلك يعد الفصل الثانى من الكتاب ، وهو الجزء المخصص للمظاهر الاكلينيكية جزءاً هاماً بالنسبة لعلم النفس فقد حاول أن يبحث فى تاريخ الشخص الفردى وتاريخ الاسرة وحاول ان يصل الشخص بكل البيئات التى تؤثر فى السلوك . ويمكن القارىء الاجنبى عن مصر ان يكون فكرة واضحة عن مشاكل المجتمع المصرى وصحيح أنه قد توجد حالات تبدو بسيطة فى مظهرها ولكنها خطيرة فى حقيقة الامر ومن بين هذه الحالات الحالة الثالثة والرابعة . وقد استطاع المؤلف ان يقول كلمة صريحة عن السيكوباتية بين ذوى المهن العالية ويلقى هذا الجزء ضوءا على كثير من الاضطرابات التى تسرى فى المجتمع من جراء مرض خفى يؤثر فى نفس شخص استطاع ان يخفيه على نفسه ويخفيه على الناس . وتكون النتيجة ان يصل اشخاص إلى

مقامات عالية وأن يوجد تباين كبير بين مقدرة الشخص على العمل والتعب وبين التبعة الخطيرة التي تحملها . وعلى ضوء هذا البحث العلمي نستطيع ان نفهم خطر التفاوت بين النفوس الصغيرة والمراكز الكبيرة . وهكذا يجد القارىء تحليلا دقيقاً لنفسية طبيب مريض شاعر بمرضه . وهو يملأ منصباً هاماً في إحدى المستشفيات : « إن طبيب . ولكن جانباً كبيراً من جهده ووقته مصروف الى التقول على زملائه. بافتراء الاكاذيب عليهم سيان في ذلك ابتداؤه « واصدقاؤه » وليس مما يعنيه او يثنيه ان تفتضح اكاذيبه . فان الذي يرى ابتسامته العابثة وهو يقابل صدر زملائه وإعراضهم حينا وسخريتهم وتحقيرهم احيانا . يرى الخلق السيكوباتي في طوره غير المتبصر بألفاظ لا يستطيع ان يتمثل مدلولها واتجاهه الجامح إلى إرضاء نزعات فجة وتحقيق كسب وهمي .

والمهم هو ان تربط بين هذا السلوك الذي يبدو بسيطاً وعادياً وبين سلوك اكثر خطورة ينسب للشخص نفسه ويثير ضجة في المجتمع وحيرة

ولعل بعض الناس يعتقد ان الوصف الذي قدمه لنا المؤلف عمل يمكن اي شخص ان يقوم به . ولا تظهر قيمة الاختبار والملاحظة إلا إذا وقف القارىء على الفصل الثالث وتتبع جولات المؤلف في تحليل السلوك السيكوباتي واستغلاله لملاحظاته القيمة

وفى هذا الجزء من الكتاب تبدو براعة المؤلف كطبيب باحث يجمع بين المطالعة الغزيرة والملاحظة الدقيقة . وتعد صفحات الوراثة أهم ما كتب فى هذا الموضوع ، اذ نجد أحدث الأبحاث وأعمق الافكار

وقد ذكر المؤلف مجلات متخصصة كثيرا ترجع الى كتب مطولة وأهم ما جاء فى هذا الجزء هو مناقشة المؤلف لبعض النظريات الموضحة الوظائف النفسية لبعض الأعضاء مثل صلة الهيبوتلاموس بالانفعال وعرف المؤلف كيف يستغل منهج التكامل فى دراسة الشخصية واستطاع أن يتتبع مراحل النمو ويربط بينها وبين آثار الجسم من جهة وآثار المجتمع من جهة أخرى ، فنراه يدرس المرحلة الرابعة وهى « مرحلة المعارضة المضادة للنظام » التى تستغرق فترة المراهقة . هذه هى مرحلة ثورة الذات على القيود الاجتماعية وهى تحفل بمصارعات جديدة ناتجة من اضطراب التوازن السيكوبيولوجى الذى صدمته نشاط الغدد الجنسية ثم من القيود التى يقيدها المجتمع دون إشباع الغريزة المعارفة . »

هذا ويبذل جهد الباحث فى محاولته حصر آراء العلماء فى التحليل والتعريف والتصنيف . وترددت أسماء أعلام علم النفس . وكل رأى مصحوب بشرح واضح ومناقشة علمية دقيقة .

ويصل القارىء بفكرة واضحة عن المرض ليخرج من الكتاب برأى عن الطريق العملى فى التوجيه والعلاج ويعد هذا الفصل خلاصة تلقى ضوءا يوضح الصلة بين أجزاء الكتاب . ودراسة الاسباب والعلل والتطور تعد تمهيدا للتوجيه والعلاج . إذ يكفى أن يعرف السيكوباتى نفسه ليغير سلوكه . فالشخص يأنف من الأعمال الآلية المفروضة عليه فرضا . ذلك أنه متى

ويجد وصفا دقيقا لسلوكه ويعلم أنه أصبح معروفا لدى كل الناس فانه يقلع عنه ويبتعد عن كل ما يتعلق به

ولهذا كان للتمثيل الفرنسى فى القرن السابع عشر دورا هاما فى محاربة السيكوباتية . والفضل فى ذلك يرجع إلى الأديب موليير الذى استطاع أن يدرك الشذوذ فى السلوك ويقدم نماذج مضحكة منه على المسرح

أضف إلى هذه الافادة بطريق التعريف والتصنيف فقد حاول الدكتور هنرى جرجس أن يضع أساسا جديدا للعلاج قائما على المنهج التكاملى : « الهدف الذى يقصد المنهج التكاملى اليه هو أن يجعل من المهنة الطبية أداة وقائية اجتماعية لا أداة علاجية فردية ، لأنه يجعل مثله الأعلى تدبير الصحة لا خدمة المرض . »

وإذ تبين أن السلوك السيكوباتى يرجع الى التفكك الناشىء عن اضطراب عوامل الشخصية فان الغاية الصحيحة فى الطب هى أن نحاول ايجاد الظروف الملائمة لتكون هذه العوامل متكاملة ولنكفل بذلك تكامل الشخصية وسلامتها

قال فى صفحة ٢٥٩ من كتابه : « ونحن نرى أن الحالة السيكوباتية يمكن أن تعرف بأنها اضطراب خطير فى الشخصية يمنعها من التكامل ويشوه علاقة الفرد بالعالم الخارجى ويصدر هذا الاضطراب بصفة خاصة عن قصور فى نمو الأنا والأنا الأعلى يلازم الفرد منذ نشأته ، أو ينشأ فى سن مبكرة لا تتجاوز البلوغ فيعجزه عن تمثيل الزمن كخبرة حية وعن إدراك جانب المعنى فى الحياة والعلاقات الانسانية . وتبدو مظاهر هذا القصور فى سلوك لا اجتماعى أو

معناد المجتمع يتميز بالاندفاع ، وبأولية القيم القصيرة الأجل وباتباع مبدإ اللذة مما يجعل صاحبه عاجزاً عن الافادة من التجربة . ومن ثم عن التكيف مع البيئة الاجتماعية . وليست لدى معه وسائط العلاج أو وسائل الردع فيما نعرف حتى الآن ،

وهو تعريف يحتاج إلى تعريفه

الحالات التي عرضها ووصف تاريخها طريفة كل الطرافة ؛ لأن سلوك أصحابها أشبه بالقصص والاطلاع عليها يقرب فكرة السيكوباتية إلى الذهن ونلخص إحدى هذه الحالات وهي الحالة الثانية (ص ٣٧ - ٤٦) لكي نلقي الضوء على السلوك السيكوباتي :

أحضر المريض « ب » إلى مستشفى الامراض العقلية لاعتداءاته وسرقاته المتكررة وعلى الاخص سرقة السيارات وتشرده وشذوذه . وأبرز شيء في تاريخ أسرته انفصال أبيه عن أمه وهو في السادسة من عمره ، ثم زواج أبيه من غير أمه وأمه من غير أبيه . وقد أصيب وهو في الثالثة بحروق ، ووقع في الخامسة من فوق الدرج وأصيب بارتجاج في المخ وفي السادسة وقع من الدراجة وأصيب بهذيان ثلاثة أيام . كان أبوه كثير الخلاف مع أمه فلما طلقها أصبح سلوكه مع زوجة أبيه سلوك العناد والتعدي ، وكان أبوه يعاقبه بالضرب ونجح في المدرسة الابتدائية وابتدأ شذوذه في المدرسة الثانوية وكثر هروبه من المدرسة وأدركته المراهقة وتعود العادة السرية وتعرف إلى كثير من الفتيات وانزلق إلى سرقة السيارات لكي يصطحب عشيقاته فيها ثم أخذ يسرق بعض أثاث المنزل للحصول على المال . وكان

تشخيص حالته بالمستشفى فى المرة الاولى « النقص الخلقى » . وفى المرة الثانية « جنون الصرع »

وهذه خلاصة الحالة الخامسة (ص ٥٩ - ٦٨) . جىء بالمريض « و » إلى المستشفى لارتكابه طائفة من المخالفات الخلقية والقانونية آخرها انتحال شخصية موظف عمومى . بدأ شذوذه يظهر بعد السنة الاول من حياته فى العناد والمشاكسة وكان فى المدرسة متلافا كثير الاعتداء على غيره ، وتعلم العادة السرية منذ المراهقة ولم يقلع عنها حتى الآن . وبالرغم من اتصاله بالنساء يحب الاتصال بالخادمات وإيذاءهن وحالفه الحظ فاجتاز الدراسة وتوظف فى بلدة ولكنه كان مثال السلوك السيء بين اخوانه . يكثر الاقتراض منهم دون سداد بل من كل شخص يعرفه أو يتعرف اليه ، وفصل من العمل لتهم خلقية ثم ارتمى فى أحضان راقصة فتزوجها . ثم طلقته بعد أن ابتز مالها . وتزوج غيرها من طبقة لاتليق بمنزلته . ثم عاش عيشة التسكع والابتذال والاحتيال منتحلا شخصية ضابط بوليس ليتسنى له ارتياد أماكن الموبقات والبنسيونات . وضبط وأحيل إلى مستشفى الامراض العقلية فشخصت حالته بأنها « نقص خلقى »

فالسيكوباتى شاذ فى سلوكه . والسيكوباتية نوع من الشذوذ يرجع إلى الاندفاع وطلب اللذة العاجلة من أى سبيل حتى لو أدت الى معارضة الاخلاق والمجتمع والقانون . واقترح لفظة « المستهتر » مرادفة للسيكوباتى على أن تختص بمعنى الشذوذ أو الانحراف . والسيكوباتية : هى الاستهتار . الذى يحمل معنى الاستخفاف بالمجتمع والاخلاق والقانون . الامراض العصبية والنفسية من أشق الامراض وصفا وتعليلا ولا يزال العلم بهما فى

بدايته ، والخلاف بين العلماء عظيم على التشخيص والتعليل . غير أن علم الطب العقلى يخطو ولاريب خطوات واسعة مع تقدم العلوم الفيزيقية والبيولوجية ، واختراع الآلات الضابطة لمختلف أنواع السلوك ، وإرجاعها إلى مايوازيها من أعضاء الجسم .

وقد أشار المؤلف (ص ١٣) « الى نتائج الرسم الكهربائى المخ » فى بعض أمراض المخ العضوية ، وفى حالات الصرع والحالات السيكوباتية » . ودراسة كهرباء المخ والعلاج بالكهرباء آخر ماوصل اليه العلم ، ونحن نرجو أن يصل منه العلماء الى شىء مفيد ، كما أن التقدم فى دراسة الغدد وافرازاتها قد يبين العلاقة الوثيقة فى المستقبل بين الجسم والعقل .

ومشكلة المستهترين أو السيكوباتيين هى قبل كل شىء فى الحاقها باحدى المجموعتين من الأمراض العصبية أو النفسية ، ويرى المؤلف أنها وسط بينهما . وهناك مذاهب مختلفة فى تعليل سلوك المستهتر ، منها مدرسة التحليل النفسانى التى ترى أن سلوكه لايتعدى طور الطفولة ومذهب المدرسة الاجتماعية ومذهب ثالث يجعل علة الاستهتار فى الجسم ورابع يلحقه بالأمراض العقلية ويقول الدكتور ادورد استركار : « ان الشخصية السيكوباتية ادنى الى العيوب الخلقية منها الى الأحوال المرضية » .

وقد سبق أن وجهت إلى الدكتور القوصي نقداً خلاصته أنه يعرض نظرية مكدوجل ثم نظرية فرويد من غير أن يتخذ منهما موقفاً صريحاً محدوداً ، أهو من أتباع مكدوجل ، أم من أنصار فرويد ، أو أن له مذهباً خاصاً يختلف عنهما ؟ ويبدو أن هذا النقد نفسه يمكن أن يوجه إلى الدكتور صبري جرجس : فهو يعرض نظريات العلماء المختلفة ، ويحسن ولاشك عرضها وتلخيصها ، ويكثر من الإحالة إلى المراجع المختلفة ، ولكن أين نظريته أو مذهبه ؟ قد يقول إنه خصه في التعريف الذي نقلناه عنه في صدر هذه الكلمة . غير أن هذا التعريف متعارض في أطرافه ، يحاول صاحبه التوفيق بين شتى المذاهب حتى لايفوته مافي كل منها من محاسن ، فهو يبدأ بقوله : إن اطمئنان النيكوباتية اضطراب في الشخصية يمنعها من التكامل ، وهذه نظرة في علم النفس فردية لااجتماعية ، ثم يحاول أن يفسر الحالة تفسيراً اجتماعياً ، بل لقد جعل نظريته الاجتماعية جزءاً من عنوان الكتاب ، فقال : بحث في علم النفس الطبي الاجتماعي . وكذلك يأخذ بطرف من مذهب فرويد ومن غيره .

وقد تسألني عن مذهبي الخاص في هذه المشكلة ، ولك الحق في هذا السؤال ، إذ لايكفي النقد وبيان مافي نظريات الغير من أخطاء أوقصور ، بل الواجب أن تدلي بالرأي الذي تعتقد أنه الصواب .

والرأي عندي ، وأنا أتابع فيه بعض العلماء ، أن الاضطرابات

النفسية اذا لم تكن ناشئة عن أسباب وظيفية أو عيوب فسيولوجية فانها ترجع الى سوء التربية منذ الصغر والى فساد العلاقة بين الطفل وأبويه واخوته والأشخاص المحيطين به وما يترك ذلك من آثار وجدانية فى نفس الطفل تصحبه حتى الشباب والكهولة وقد يصعب التخلص منها .

وقد أشار المؤلف الى هذا الرأى فى ختام كتابه فقال : « فقلما نرى علة من علل النفس أو العقل او لوناً من الوان الزيغ والانحراف او مشكلة من مشكلات السلوك الا اتصلت منابعها بالسنوات الأولى للحياة . »

يقول المؤلف ان السيكوباتيين لاتجدى معهم « وسائط العلاج او وسائل الردع فيما نعرف حتى الآن » وليس هذا عيب المريض بل عيب الطبيب . ذلك ان اساس العلاج النفسانى حسن الصلة بين الطبيب المعالج والمريض فينقل اليه هذا الأخير انفعالاته المخزونة ويفضى اليه بجميع مكنونات نفسه فإذا فقدت هذه الصلة فلا جدوى فى العلاج . جاء فى ص (٥٢ — ٥٣) عن الحالة الثالثة انه « مما تجدر الإشارة اليه ان (م) فى تاريخ حياته لم يكن يشير الى أمه او الى اخواته وكان يستبعد كل سؤال عنهن بالإسراع الى القول بأنهن لا يتدخلن فى شؤونه وان اثرهن فى حياته قليل وبغير ان نحاول التمكن بتفصيلات علاقته بهن فإننا نستطيع الاشتباه فى ان هذه

العلاقة كانت من عوامل الصراع في نفسه ».

والسؤال الآن : كيف يتسلل الطبيب إلى اجتذاب المريض واكتساب ثقته التامة ؟ الواقع أن العلاج النفساني فن يكتسب بالممارسة ويحتاج إلى استعداد خاص ومواهب لاتتوافر في كل عالم بهذا العلم وليس من الضروري ان يفلح الطبيب مهما تكن قدمه راسخة في اجتذاب ثقة جميع المرضى . (١)

اقول هذا عن خبرة بهذا الفن في العلاج وخلاصته خبرتي ان المرضى اصناف ثلاثة : صنف يتعذر تماماً وصنف يستسلم كل الاستسلام وثالث وهو الأغلب يركن الى الطبيب بعد مقاومة قد تطول وقد تقصر . والمقاومة دليل المرض النفسي عند ارباب هذا الفن.

واكرر ماقلته سابقاً من ان امتزاج نفس المريض بالطبيب هو الشرط الاول في العلاج وعندئذ يفضي المريض بأسرار تعد حقاً من الغرائب .

كنت اعالج شابا وسألته عن احواله الجنسية فقال : انه يقضي الاجازة الصيفية عند اهله في الريف وفي الحقل يشبع غريزته الجنسية مع الفلاحات ومع الخادمات في الدار قلت له : مادمت تجد بغيتك خارج المنزل فلماذا تنتهك حرمة الدار؟ فروى لي انه يجد في نفسه دافعاً لايقاوم يحركه الى طلب الخادمة على مافي ذلك من خطورة انكشاف الأمر وافتضاح السر . وعجبت لهذه النزعة وظللت اسبر

(١) مجلة الكتاب

غوره فى التحليل ، حتى تذكر أنه فى عهد الطفولة ، فى سن الثالثة أو الرابعة كانت الخادمة التى تعنى بأمره ؛ وهى امرأة متوسطة السن غير متزوجة ، تتجرد من ثيابها ثم تضمه فوقها ليعبث بها عبثاً جنسياً ، وكان يجد فى ذلك لذة كبيرة لم يمح الزمن ذكراها من نفسه ، ومازالت تلح عليه فى طلب مثل ما كان يشعر به من لذة . وقد أورد المؤلف فى حالاته انصراف الكثيرين إلى الخادمات فلعل القاعدة السابقة تلقى شيئاً من الضوء على سلوكهم (١)

ومن سوء التربية فى الصغر أن يترك الآباء أبناءهم فى أحضان الخدم فينشأ الأطفال متعلقين بهذه الطبقة متخلقين بأخلاقها ولقد ذكر ابن سينا فى كتاب سياسة الرجل أهله وولده أنه ينبغى حسن اختيار المربية للأطفال . وهذه مسألة فطن إليها القدماء ، كما يعنى بها المحدثون ، فى غير حاجة إلى طول تعمق فى النظريات . من ذلك أن الخدم الذكور قد يعبثون بالاطفال عبثا جنسيا من أمام أو خلف أما الخادمات فقد يعمدن الى تحريك عضو تناسل الطفل قصدا أو لهوا .

هـــذا ومن الخلال التى يتصف بها المستهترون التماس المعاذير لكل مايفعلون ، فلا يعترفون بالخطأ ولا يشعرون بالندم وهى عقلية خاصة من شأنها تسويغ جميع الأفعال وتبرير أنواع السلوك . ويعرف هذا بمنطق التبرير فى مقابل منطق الواقع وهو منطق شائع عند كثير من المصريين وإليه تعزى أغلب النقائص عندنا ولا أمل فى تقدم شبابنا إلا إذا تغـــيرت عقليته من التبرير إلى منطق الواقع الصريح . ومرجع ذلك سوء التربية فى الصغر واختلال الأمور بين الأب والأم . إن الأمهات عندنا

---

(١) مقال الدكتور أحمد فؤاد الاهوانى ـ الكتاب

رقيقات العاطفة يسترن عيوب أبنائهن ويخفينها عن أعين الآباء خشية غضب الوالد وثورته على الابن وضربه إياه . فاذا احتاج الابن إلى مزيد من المال أعطته أمه إياه دون علم أبيه وإذا تأخر خارج الدار ليلا قامت تفتح له الأبواب خفية عن العيون . فإذا رسب فى دراسته اتخذت له المعاذير . وهكذا يفسد الابن بين شدة أبيه وإهماله ولين أمه وسوء تصرفها ، ويتعلم الاندفاع لان أمه تجيبه إلى كل ما يطلب ثم يتعود الكذب والإهمال والكسل والغش حتى ينتهى أمره إلى الاستهتار وهو ما يسمى المشكلة السيكوباتية ومرد ذلك كله إلى فساد التربية .

الاخفاق والفوز

يقول الدكتور ونرل هوايت فى مجلة ساتسفول ليفج : يلجأ كثير من الافراد الى طريقة الايحاء الخارجى للتأثير فى عقول الناس مستغلين جهلهم لتحقيق مغانم كثيرة . ومن هؤلاء أشخاص يتخصصون فى تصريف بعض أنواع من السلع الرخيصة والعقاقير المدرة الفائدة . ولهم فى هذا المضمار طريقة فنية متقنة فيقف البائع منهم فى ميدان عام يخطب فى فصاحة وطلاقة معددا منافع السلعة التى يعرضها للبيع باقل من تكاليفها زاعما أنه لا يبغى من وراء ذلك سوى خدمة الجمهور وانقاذه من براثن الغش والجشع وهذه الحيل الشيطانية تجوز على الكثيرين فى كل بلاد العالم وقد شاهدتها فى كثير من العواصم الاوربية الكبرى .

ويستعين الساسة والزعماء بطرق علم النفس لكسب التأييد والمحبة بين مواطنيهم بالتأثير فيهم بوعود الخلابة من توفير كل أسباب السعادة